﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ٢٥ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٢٦﴾ [فاطر: 25 - 26]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ من العمومِ السُّنَنيّ إلى الخصوصِ الخِطابيّ

لمّا بيّنتِ الآيةُ السّابقة أنَّ الأمم المتقدّمة قد جاءتها رسلُ اللّه تعالى مُنذِرين لكفرِهم وعنادهم، وأنَّ هذه هي سنّةُ اللّه تعالى مع جميعِ الأمم في إرسال المُرسلَين لإنذارِ مَن أشرك وعاند، ناسبَ الانتقالُ من الإخبارِ عن ذلك العموم، إلى خصوصِ إنذارِ النّبيِّ ﷺ قومَه، ففيها منَ التّسليةِ والإيناسِ بأنَّ ما كان للرُّسُل السّابقين كان لنبيّنا ﷺ، ففُهم من هذه المناسبةِ أنَّ الأممَ السّابقة صدر عنها تكذيبٌ لرسلِهم، كما كذّبت قريشٌ رسولَ اللّهِ ﷺ، ثمّ أخبر عن إيقاعِ العقوبةِ بسببِ تكذيبِهم، تلويحًا لمن عاند وأصرّ على شركه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: (بين) أصلٌ يدلُّ على بُعْدِ الشَّيءِ وانكشافِه، ومِنْ ذلكَ: البَيْنُ، وهو الفراقُ، ويقالُ: بانَ الشَّيءُ وأبانَ، إذا اتَّضحَ وانكشفَ، والبيِّنةُ: الدّلالةُ الواضحةُ، عقليَّةً كانَتْ أو محسوسةً[1]، والمرادُ بالبيِّناتِ في الآيةِ: خوارقُ العاداتِ الَّتي أظهرَها الأنبياءُ[2].

2) ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾: (زبر) أصلٌ يدلُّ على كتابةٍ[3]، ومِنْ ذلكَ قولُهم:

(1) الرّاغب، المفردات: (بين).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 298.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زبر).

زَبَرْتُ الكتابَ: كتبتُهُ كتابةً غليظةً، وخُصَّ الزَّبورُ بالكتابِ المُنزَلِ على داودَ عليه السلام[1]، والمرادُ بالزُّبُرِ في الآيةِ: المواعظُ الَّتي يُؤمَرُ بكتابتِها؛ لتكونَ محفوظةً، وتُردَّد على الألسُنِ، كزَبورِ داودَ عليه السلام[2].

3) ﴿أَخَذْتُ﴾: (أخذ) أصلٌ يدلُّ على حَوْزِ الشَّيءِ وتحصيلِهِ[3]، وذلكَ يكونُ تارةً بالتَّناولِ، نحوُ: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]، وتارةً يكونُ بالقَهْرِ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: 67][4]، والمرادُ بالأخذِ في الآيةِ: الاستئصالُ والإفناءُ[5].

4) ﴿نَكِيرِ﴾: (نكر) أصلٌ يدلُّ على خلافِ المعرفةِ[6]، فالإنكارُ ضِدُّ العِرْفانِ[7]، ويقالُ: أنكرتُ على فلانٍ، إذا فعلتُ بهِ فِعلًا يَردعُهُ[8]، والمرادُ بالنَّكيرِ هنا: شدَّةُ الإنكارِ بالعقوبةِ[9]، إذِ العقوبةُ إلَهيَّةٌ غيرُ معروفةٍ لدى النّاس، فكان ذِكْرُ نكير من بابِ التّهديد والتّرهيب.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّكذيبُ دَيدنُ المعاندين، والعذابُ سنَّةُ ربِّ العالَمين

تُخاطبُ الآيةُ الكريمةُ رسولَ الله ﷺ، مسليَّةً له فيما يَلقَى مِنْ تكذيبِ قومِهِ: وإنْ يُكذِّبْكَ - يا محمَّدُ - مُشركو مكَّةَ فقد كذَّبَ الَّذينَ مِنْ قبلِهم مِنَ الأُممِ، الَّذينَ جاءَتْهم رُسُلُهم بالمعجزاتِ وكتبِ المواعظِ والتَّنبيهاتِ، وكتبِ الشَّرائعِ والأحكامِ، ثمَّ أهلكهمُ اللهُ تعالى لإصرارِهم على كفرِهم وعنادِهم، فكيفَ كانَ إنكارُ اللهِ الشَّديدُ عليهِم بالعقابِ والنَّكالِ؟!.

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (زبر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 298.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(4) الرّاغب، المفردات: (أخذ).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 299.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نكر).
(7) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نكر).
(8) الرّاغب، المفردات: (نكر).
(9) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 122، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 300.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها على الحذفِ:

تصديق الأقوامِ وتكذيبُهم عادةُ الأممِ

يحتملُ أنْ تكونَ الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ عاطفةً لهذهِ الجملةِ على جملةٍ محذوفةٍ، ونُكْتَةُ العطفِ: أنَّهُ لمّا كانَ النَّبيُّ ﷺ شديدَ الأسفِ على رفضِ قومِهِ للدَّعوةِ؛ رحمةً لهُم، وخوفًا مِنْ أنْ يكونَ ذلكَ لتقصيرٍ منهُ، وكانَ التَّقديرُ: فإنْ يُصدِّقوكَ فقد فازوا بخيرَيِ الدُّنيا والآخرةِ؛ عُطِفَ عليهِ تسليةً لهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[1]، فتكونُ الواوُ منبِّهةً على القسيمِ الآخرِ، وهو تصديقُ قومِهِ ﷺ له، لكنّه حَذَفَ المعطوفَ عليه لإرادةِ التّهديد، فإنَّ وقتَ نزولِ الآياتِ كان التّكذيبُ هو السّائد، ومقصودُ الآيةِ تسليتُه ﷺ بما كان للسّابقين، ويحتملُ أنْ تكونَ الواوُ استئنافيَّةً والجملةُ مستأنفةً؛ تسليةً لهُ ﷺ، ببيانِ أنَّ التَّكذيبَ عادةُ أقوامٍ معَ أنبيائِهم، وأنَّ الأنبياءَ لم يُقصِّروا في دعائِهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ الشَّرطِ:

الإعلامُ بحالِ السّابقين يدفعُ العجبَ من صنيعِ اللّاحقين

جيءَ بأسلوبِ الشَّرطِ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ لإفادةِ ترتُّبِ تركِ الأسفِ على المُكذِّبينَ على تكذيبِهم وعنادِهم، وفي ذلكَ حثٌّ للنَّبيِّ ﷺ على ألّا يُهلِكَ نفسَهُ حسرةً وأسًى عليهِم؛ إذ يفيدُ الشَّرطُ أنَّ تركَهُ الأسفَ عليهِم لا ينبغي أنْ يتخلَّفَ عن كفرِهم بدعوتِهِ، وتكذيبِهم لهُ، وأفاد الشّرطُ توقعَ التّكذيبِ مع دفعِ التّعجُّبِ من صنيعِهم، فلا يتعجّب إلّا الجاهل، فأعلمه ﷺ بالحالِ كي لا يقع منه تعجُّبٌ، ودَفعُ التّعجُّبِ وأسبابِه من مظاهرِ التّسليَة.

نُكْتَةُ استعمالِ أداةِ (إنْ) دونَ (إذا):

التّكذيبُ بالواضحاتِ فوقَ أنّه عنادُ مكابرٍ فهو غفلةُ جاهلٍ

آثرَ النّظمُ الكريم استعمالَ أداةِ (إن) دون (إذا)، والظّاهرُ أنْ يقالَ: (وإذا كذَّبوكَ) باستعمالِ (إذا) الّتي تفيدُ الجزمَ بوقوعِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 42.

الشَّرطِ؛ لأنَّ تكذيبَ المشركينَ لهُ ﷺ حاصلٌ مقطوعٌ بهِ، وإنَّما استَعملَ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ (إنْ) الَّتي تُستعمَلُ في مقامِ عدمِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ التَّكذيبَ بعدَ تبيُّنِ الدَّلائلِ وظهورِ الحقِّ ممّا لا ينبغي أنْ يصدرَ عن العاقلِ، وحقُّهُ أنْ يُفرَضَ كما تُفرَضُ المحالاتُ، فنزَّلهم منزلةَ الجَهَلةِ المُسارعين في الغفلةِ.

تعيينُ مرجع الضّميرِ في ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾:

إسنادُ التَّكذيبِ لكفّارِ قريشٍ ليُشَنّعَ عليهِم تكذيبَهم ومكابرتَهم

ضميرُ الفاعلِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ راجعٌ إلى كفّارِ قريشٍ[1]، والغرضُ مِنْ إسنادِ التَّكذيبِ لهُم التَّشنيعُ عليهِم بالنَّصِّ على تكذيبِهم ومكابرتِهم، والتَّمهيدُ لتهديدِهم بما حلَّ بالأممِ مِنْ قبلِهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

التَّكذيبُ سلوكٌ بشريٌّ يتقوَّى بالشَّرِّ والكفرِ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ تكذيبَ كفّارِ قريشٍ متوقَّعٌ منهم، ومتوقّعٌ منهمُ الاستمرارُ على ذلك والانصرافُ عن قَبولِ دعوةِ الحقِّ، كما هو حالُ بقيّةِ الأممِ، ففيه حَثٌّ للنَّبيِّ ﷺ على عدمِ المبالاةِ بهِم وبتكذيبِهم[2]، ببيانِ أنَّهُ لا لومَ عليهِ وإنْ بَقوا على ما هم عليهِ مِنْ معاداةِ الحقِّ وأهلِهِ؛ فما على الرَّسولِ إلّا البلاغُ المبينُ.

أثرُ الفاءِ ودلالتُها في تقديرِ المحذوفِ:

إفادةُ عمومِ الوصيّةِ بدفعِ التّعجُّبِ والحُزنِ مِنْ تكذيبِ المُعاندين

جوابُ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ محذوفٌ دلَّتْ عليهِ عِلَّتُهُ، وهي قولُهُ تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: وإنْ يُكذِّبوكَ فلا تحزنْ، أو فلا تعجَبْ مِنْ ذلكَ؛ لأنَّ هذهِ سنَّةٌ قديمةٌ في الأممِ معَ الرُّسلِ مِثلِكَ، وليسَ ذلكَ لنقصٍ فيما جِئْتَ بهِ، فالفاءُ فاءٌ فصيحةٌ، أو

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 341.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 150.

تفريعٌ على المحذوفِ[1]، فدلَّت جملةُ الجوابِ، وما تفرّع عنها على الجوابِ المحذوفِ، ونُكْتَةُ حذفِ الجوابِ إفادةُ عمومِ المطلوب، وهو الإيصاءُ بعدم الحُزن والتّعجُّب والمبالغةِ في الحرصِ عليهم، ممّا قد يُؤثِّر على النّبيِّ ﷺ، ففيه إيماءٌ إلى رحمة اللّه تعالى بنبيّه ﷺ، فقد أرشده إلى ما فيه تسليتُه وتأنيسُه.

دلالةُ استعمالِ أداةِ (قد):

تكذيبُ السّابقينَ لأنبيائِهم مُتيقَّنٌ في اللّاحقين

(قد) في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ لتحقيقِ تكذيبِ السّابقينَ لأنبيائِهم، وتأكيدِ حصولِه، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقام تسليةِ النَّبيِّ ﷺ، ببيانِ أنَّ تكذيبَ السّابقينَ أمرٌ مُحقَّقٌ مُتيقَّنٌ، ومِثْلُهُ تكذيبُ كفّارِ قريشٍ لهُ ﷺ.

دلالةُ الإيماءِ في التّعبير بالماضي:

تحقُّقُ تكذيبِ السّابقينَ، والإيماءُ إلى وقوعِه في اللّاحقين

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ للدّلالةِ على تحقُّقِ تكذيبِ السّابقينَ، وللإيماءِ إلى أنَّه سيتحقّق وقوعُه في اللاحقين، ففيه دلالةٌ إيمائيَّة إلى أنَّ التّكذيبَ واقعٌ لا محالةَ.

غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

الإيماءُ إلى أنَّ التَّكذيبَ في الأممِ السّابقةِ سنّةٌ بيّنة

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ في قوله عزَّ ثناؤُهُ: ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الحُكمَ بالتَّكذيبِ عامٌّ للأممِ السّابقةِ لكفّارِ قريشٍ، كقومِ هودٍ، وقومِ صالحٍ، وقومِ لوطٍ، وقومِ فرعونَ، فالتَّعريفُ بالموصولِ هنا مُساوٍ للتَّعريفِ بلامِ الجنسِ، والمرادُ شمولُ التَّكذيبِ لكلِّ أمَّةٍ على سبيلِ الإجمالِ، لا على أنَّ كلَّ فردٍ مِنْ أفرادِها مُكذِّبٌ؛ إذ لا تخلو أمَّةٌ مِنَ المؤمنينَ، وإنْ كانَ عددُهم قليلًا، وللتّنبيه على أنَّ علةَ إيرادِ هذا الأمر هو بيانُ أنَّ التّكذيبَ كائنٌ في المتقدّمين، ففيه تقويةٌ لمعنى السُّنَنيَّة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 299.

دلالة ﴿مِن﴾ في ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾:

التَّسليةُ معَ تقاربِ الزَّمانِ أشدُّ

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ لابتداءِ الغايةِ الزَّمانيةِ، وفي التَّعبيرِ بها هنا - حيثُ لم يُقَلْ: (قبلَهم) - تقويةٌ للتَّسليةِ؛ لأنَّ تسليةَ الإنسانِ بمَنْ قاربَهُ في الزَّمانِ أشدُّ، ولأنَّهُ لمّا كانَ المُكذِّبونَ بعضَ النّاسِ، فلزمَ لذلكَ أنْ يكونوا في بعضِ الزَّمانِ؛ دلَّ على ذلكَ بإثباتِ حرفِ الجرِّ[1].

نُكْتَةُ حذفِ مفعولِ ﴿كَذَّبَ﴾:

الحذفُ للإيجاز، ولدلالة السّياق على المحذوف

حُذِفَ المفعولُ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إيجازًا؛ لدلالةِ السّياقِ عليهِ، والتَّقديرُ: كذَّبَ الَّذينَ مِنْ قبلِهم أنبياءَهم[2]، كما أنّ في حذفِ المفعول توجيهَ الاهتمامِ بالتّكذيبِ والمكذّبين، وأنَّه المقصودُ في الكلامِ.

بلاغةُ موقعِ جملةِ ﴿جَآءَتْهُمْ﴾:

تعيينُ سببِ الكفرِ، ودفعُ التّقصيرِ عن الأنبياءِ في التَّبليغِ

يحتملُ أنْ تكونَ جملةُ ﴿جَآءَتْهُمْ﴾ مستأنَفَةً استئنافًا بيانيًّا، جوابًا لسؤالٍ نشأَ مِنَ الكلامِ السّابقِ، فكأنَّهُ لمّا أُخبرَ عن تكذيبِ الَّذينَ مِنْ قبلِهم، سألَ سائلٌ: هل كانَ تكذيبُهم عِنادًا أو لنقصٍ في البيانِ؟[3]، فأُجيبَ بأنَّهُ لم يكنْ لتقصيرٍ مِنَ الأنبياءِ في البيانِ؛ لأنَّه ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾، بل كانَ لعنادِ الكفرةِ، وفَرْطِ تمسُّكِهم بما هم عليهِ مِنَ الباطلِ، ويحتملُ أنْ تكونَ حالًا بإضمارِ (قد)[4]، أي: كذَّبَ الَّذينَ مِنْ قبلِهم وقد جاءَتْهم رُسُلُهم بالبيّناتِ[5]، وفي التَّقييدِ بالحالِ تقبيحٌ لتكذيبِ الكفرةِ، بأنَّهُ قد وقعَ معَ مجيءِ الأنبياءِ بالبراهينِ والحُجَجِ الواضحةِ، وفيهِ تنبيهٌ على أنَّ نفوسَهم قد ضَرِيَتْ بالكِبْرِ والعنادِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 184، 16/ 42.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 341، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 397.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 42.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 85.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 360.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالماضي:

مجيءُ الرُّسُلِ بالبيّنات حجَّةٌ متحقِّقةٌ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قوله جلَّ شأنُهُ: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ مجيءَ الرُّسلِ بالبيِّناتِ والزُّبُرِ والكتابِ المنيرِ أمرٌ قد تحقَّقَ، وفي ذلكَ إقامةٌ للحُجَّةِ على المُكذِّبينَ، بأنَّ اللّهَ تعالى قد أرسلَ إليهم الرُّسُلَ مُؤيَّدينَ بالبراهينِ الصّادقةِ.

نُكْتَةُ استعمالِ مفردةِ المجيءِ دونَ الإتيانِ:

المَجيءُ بالبراهينِ حاصلٌ مُقترنٌ بالقصدِ

آثرَ النّظم الكريمُ استعمالَ مفردةِ المجيءِ دونَ الإتيانِ في قوله عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾؛ لأنَّ الإتيانَ قد يقالُ باعتبارِ القصدِ وإنْ لم يكنْ منهُ الحصولُ، وأمّا المجيءُ فيقالُ اعتبارًا بالحصولِ[1]، فتكونُ دلالةُ (جاءَ) على المجيءِ أقوى مِنْ دلالةِ (أتى)، وهو المناسبُ هنا لمقامِ إقامةِ الحُجَّةِ على المشركينَ، ببيانِ أنَّ المجيءَ بالبيِّناتِ والزُّبُرِ والكتابِ المنيرِ قد ثبتَ يقينًا.

نوعُ الإضافةِ ودلالتُها:

تخصيصُ رسولٍ فأكثر بكلِّ أُمَّةٍ حجّةٌ باهرةٌ وسلطانٌ هادٍ

الإضافةُ في قوله ﷻ: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ بمعنى اللّام، أي: رسلٌ لهم، ففي إضافةِ الرُّسلِ إلى ضميرِ المُكذِّبينَ إشعارٌ باختصاصِ كلِّ رسولٍ بالأُمَّةِ الَّتي أُرسلَ إليها، وأنَّهُ كانَ لها دونَ غيرِها، وذلكَ أنسبُ بمقامِ إقامةِ الحُجَّةِ عليهم؛ إذ كونُ الرَّسولِ مختصًّا بهم يعني: أنَّهُ يبذلُ غايةَ وُسْعِهِ في دعوتِهِ لهُم، ولا ينشغلُ عنهُم بغيرِهم، وإذا كانَ للأمَّةِ أكثرُ مِنْ رسولٍ - كما هو الشَّأنُ في بعضِ الأممِ - فذلكَ أبلغُ في الحُجَّةِ، وأقطعُ للعُذْرِ.

مناسبةُ استعمالِ لفظِ الرُّسلِ دونَ الأنبياءِ:

الاتِّساقُ بين الألفاظِ والمعاني من عناية النّظم القرآنيّ

جاء التّعبيرُ بلفظِ الرُّسلِ دونَ الأنبياءِ في قوله تعالى: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾؛ لأنَّ الرُّسلَ مأمورونَ

(1) الرّاغب، المفردات: (جاء).

بالتَّبليغِ، فيكونونَ عُرْضةً للتَّكذيبِ الَّذي تتحدَّثُ عنهُ الآيةُ، ولأنَّ الرُّسلَ أنسبُ بقوله تعالى في حقِّهِ ﷺ في الآيةِ السّابقةِ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ﴾؛ إذ يفيدُ الكلامُ أنَّ علَّةَ تكذيبِهِ ﷺ هي علَّةُ تكذيبِ مَنْ قبلَهُ، وهي الرِّسالةُ.

نُكْتَةُ إسنادِ فعلِ المجيءِ إلى الرُّسلِ:

لمّا كانتِ البيِّناتُ والزُّبُرُ والكتابُ المنيرُ في جنسِ الرُّسُلِ؛ أُسندَ المجيءُ بها إليهم إسنادًا مطلقًا، فقيلَ: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾، وإنْ كانَ بعضُها في جميعِهم، وهي البيِّناتُ، وبعضُها في بعضِهم، وهي الزُّبُرُ والكتابُ المنيرُ[1]، فيكونُ الإسنادُ مِنْ قبيلِ قولِهم: بنو فلانٍ قَتلوا فلانًا، وإنَّما القاتلُ رجلٌ منهُم[2]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ الرُّسُلَ وإنْ تعدَّدوا وتعدَّدَ ما آتاهمُ اللّهُ مِنَ البراهينِ والدّلائلِ؛ فغايتُهم واحدةٌ، وهي الدَّعوةُ إلى توحيدِ اللّهِ تعالى وعبادتِهِ، وهم في ذلكَ بمنزلةِ رسولٍ واحدٍ.

الرُّسُلُ السّابقون بمنزلةِ رسولٍ واحدٍ

نوعُ الباءِ ودلالتُها:

الباءُ الجارَّةُ في قوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ للمصاحبةِ، أي: مصحوبينَ بالبيِّناتِ والزُّبُرِ والكتابِ المنيرِ، وفي ذلكَ تشريفٌ للرُّسُلِ، بأنَّهم مُؤيَّدونَ بالأدلَّةِ والبراهينِ مِنَ اللّهِ، وفيهِ أيضًا إظهارٌ لرحمتِهِ ﷺ بالمُرسَلِ إليهم؛ حيثُ لم يترُكْهم وعقولَهم وأهواءَهم، بل جعلَ في هذهِ البراهينِ والدَّلائلِ ما يَحملُهم على الإيمانِ، ويقتلعُ جذورَ الشَّكِّ مِنْ نفوسِهم، إنْ هم تركوا الكِبْرَ والعنادَ.

بيِّناتُ رُسُلِ الحقِّ حُجَجُ اللهِ على الخَلْقِ

معنى تعريفِ ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، وغرضُ جمعها:

تعريفُ لفظِ ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 609، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 85.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 641.

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ للجنسِ، أي: بجنسِ البيِّناتِ، أي: المعجزاتِ الدّالَّةِ على صحَّةِ نبوَّتِهم[1]، أو للعهدِ، أي: بالبيِّناتِ المعهودةِ لكلٍّ واحدٍ منهُم، وجُمِعَ لفظُ ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾؛ لأنَّها مُتعدِّدةٌ بتعدُّدِ الرُّسلِ؛ إذ مقابلةُ الجمعِ بالجمعِ تقتضي القِسْمةَ آحادًا، فيكونُ لكلِّ واحدٍ منهُم معجزةٌ أو أكثرُ، وفي التَّعبيرِ بالجمعِ أيضًا إشارةٌ إلى كثرةِ دلائلِ الحقِّ.

بلاغةُ العطفِ ودلالتُه:

تنوُّعُ البيِّناتِ بتنوُّعِ الرُّسُلِ واحتياجاتِ أقوامِهم

العطفُ في قوله جلَّ شأنُهُ: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ منظورٌ فيه إلى توزيعِ أصنافِ المعجزاتِ على أصنافِ الرُّسُلِ؛ فبعضُ الرُّسُلِ جاءَ بالزُّبُرِ، وبعضُهم جاءَ بالكتابِ المنيرِ، وكلُّهم جاءَ بالبيِّناتِ[2]، وفي هذا التَّنوُّعِ إشارةٌ إلى أنَّهُ ﷻ قد عدَّدَ سُبُلَ هدايةِ الخلقِ، وسُبُلَ استقامةِ أحوالِهم وشؤونِ حياتِهم.

نُكْتَةُ تكريرِ الباءِ:

كلُّ كتابٍ استقلَّ بالحقِّ فلا نقصَ فيه ولا عجز

مقتضى الظّاهرِ أنْ يُقالَ: (بالبيِّناتِ والزُّبُرِ والكتابِ المنيرِ)، لكنْ كُرِّرَ حرفُ الجرِّ في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾؛ للتَّنصيصِ على المغايرةِ بينَ المعطوفاتِ[3]، وللإشارةِ إلى توزيعِ أصنافِ الدَّلائلِ على أصنافِ الرُّسُلِ[4]؛ إذِ التَّكريرُ يُشيرُ إلى استقلالِ كلِّ واحدةٍ منها، ولأنَّهُ لمّا كانَ التَّصديقُ بما جاءَ بهِ الرُّسُلُ لازمًا لكلِّ المُرسَلِ إليهم، وكانَتْ نسبةُ التَّكذيبِ إلى الأُممِ أمرًا عَجَبًا؛ كانَ الأمرُ حَريًّا بالتَّأكيدِ بإعادةِ الجارِّ؛ لئلّا يُظَنَّ أنَّ تكذيبَهم بسببِ عدمِ الزُّبُرِ والكتابِ[5]، وفيه إيماءٌ إلى دفعِ شبهةِ القصورِ في تلك الكتبِ، فإنَّ كلَّ واحدٍ منها قدِ استقلَّ بالخيرِ الوفيرِ، والعطاءِ الوافرِ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 609، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 258.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 298.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 52.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 298.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 42.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾:

اشتمل الزّبورُ على المواعظِ الشّافيةِ من داءِ القلوبِ

التَّعريفُ في قوله ﷻ: ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ للجنسِ، أي: بجنسِ المواعظِ الَّتي يُؤمَرُ بكتابتِها[1]، أو للعهدِ، والمرادُ المواعظُ المعهودةُ الَّتي أُمِرَ بكتابتِها لبعضِ الرُّسلِ، كزَبورِ داودَ ﷺ، وأيًّا ما كانَ، ففي الكلامِ تنبيهٌ على عنايةِ اللّهِ تعالى بتأييدِ بعضِ الرُّسُلِ بالزُّبُرِ المشتملةِ على المواعظِ، الَّتي بها صلاحُ القلوبِ والأحوالِ.

نُكْتَةُ جمعِ ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾:

كثرةُ تخوُّلِ الأنبياءِ أقوامَهم بالمواعظِ

جُمِعَتِ الزُّبُرُ في قوله سبحانَهُ: ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾؛ لأنَّها مُتعدِّدةٌ بتعدُّدِ الرُّسلِ؛ إذ مقابلةُ الجمعِ بالجمعِ تقتضي القِسْمةَ آحادًا، فيكونُ لكلِّ واحدٍ منهُم مواعظُ، وفي التَّعبيرِ بالجمعِ أيضًا إشارةٌ إلى كثرةِ المواعظِ الَّتي كانَ الرُّسُلُ يتخوَّلونَ بها أقوامَهم[2]؛ حرصًا على إرشادِهم إلى ما فيهِ خيرُ الدُّنيا والآخرةِ.

بلاغةُ عطفِ الكتابِ على الزُّبُرِ:

تنزيلُ تغايرِ الوصفِ منزلةَ تغايرِ الذّاتِ

الظّاهرُ أنَّ عطفَ الكتابِ على الزُّبُرِ في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ لتغايرِ الذّاتِ[3]؛ فالزُّبُرُ هي الكتبُ الَّتي فيها مواعظُ، والكتابُ المنيرُ هو ما فيهِ شرائعُ وأحكامٌ[4]، ويُؤيِّدُ ذلكَ إعادةُ الجارِّ[5]، ويحتملُ - على بُعْدٍ - أنْ يكونَ المرادُ بالزُّبُرِ والكتابِ واحدًا، والعطفُ لتغايرِ الوصفينِ[6]؛ لأنَّهُ زُبُرٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ مكتوبٌ، وكتابٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ مجموعٌ[7]، فنُزِّلَ تغايرُ الصِّفاتِ منزلةَ تغايرِ الذَّواتِ، ولذلكَ صحَّ العطفُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 298.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 52.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 258.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 397.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 53.
(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 258.
(7) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 53.

معنى تعريفِ الكتابِ:

تعريفُ الكتابِ في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ للجنسِ، والمرادُ كُتُبُ الشَّرائعِ، كالتَّوراةِ والإنجيلِ[1]، وفي تأييدِ بعضِ الأنبياءِ بها إظهارُ عنايتِهِ ﷻ بتشريعِ ما فيهِ انتظامُ مصالحِ النّاسِ.

المرادُ كُتُبُ الشَّرائعِ، كالتَّوراةِ والإنجيلِ

عِلَّةُ إفرادِ الكتابِ:

أُفرِدَ الكتابُ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾؛ لأنَّ تعريفَهُ للجنسِ الَّذي يستوي فيهِ الإفرادُ والجمعُ، وليُتوصَّلَ بالإفرادِ إلى وصفِهِ بالمفردِ الَّذي يترتَّبُ عليهِ مراعاةُ تلاؤمِ الفواصلِ، وفي الإفرادِ أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ كتبَ الشَّرائعِ وإنْ اختلفَتْ فهي بمنزلةِ كتابٍ واحدٍ؛ لأنَّ غايتَها واحدةٌ، وهي أنْ يُعبدَ اللّٰهُ تعالى حقَّ عبادتِهِ.

غايةُ الشَّرائعِ تعظيمُ المعبودِ

بلاغةُ الاستعارةِ في وصفِ الكتابِ بالمنيرِ:

المرادُ بإنارةِ الكتابِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾: بيانُهُ للحقِّ، وفي الكلامِ استعارةٌ مكنيَّةٌ، شُبِّهَ الكتابُ بالمصباحِ المُضيءِ في اللَّيلِ، ثمَّ حُذِفَ المُشبَّهُ بهِ، وهو المصباحُ، وأُبقيَ على شيءٍ مِنْ لوازمِهِ، وهو الإنارةُ، على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ[2]، ونُكْتَةُ الاستعارةِ: بيانُ وضوحِ تلكَ الكتبِ بإنارتِها لطريقِ المدعوّين، ففيه بيانٌ لحُجّةِ تلكَ الكُتبِ على الأقوامِ، وأنَّها لم تكن لتُقصِّر في العطاءِ الهادي، ولا التّنويرِ المستمرّ.

الكتابُ يُنيرُ طريقَ الحقِّ لإقامةِ الحُجّةِ وتوفيرِ المحجّةِ

سرُّ ترتيبِ المعطوفاتِ:

في ترتيبِ المعطوفاتِ في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ لطافةٌ، وذلكَ أنَّهُ ابتُدِئَ بذِكْرِ البيِّناتِ؛ لأنَّ كلَّ رسولٍ لا بدَّ لهُ مِنْ معجزةٍ، وهي أدنَى الدَّرجاتِ، ثمَّ قد ينزلُ عليهِ كتابٌ فيهِ مواعظُ، وإنْ لم يكنْ فيه نسخٌ وأحكامٌ، ومَنْ ينزلُ عليهِ ذلكَ أعلى

الترقّي مِنَ الأدنى إلى الأعلى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 43.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 208.

مرتبةً ممَّنْ لا ينزلُ عليهِ، وقد تنسخُ شريعتُهُ الشَّرائعَ، وينزلُ عليهِ كتابٌ فيهِ أحكامٌ، ومَنْ يكونُ كذلكَ فهو مِنْ أولي العَزمِ، فالرُّسُلُ تُبيّنُ رسالتُهم بالبيِّناتِ، وإنْ كانوا أعلى مرتبةً فبالزُّبُرِ، وإنْ كانوا أعلى فبالكتابِ، ونبيُّنا ﷺ قد أوتيَ الكلَّ، فهو رسولٌ أشرفُ مِنَ الكلِّ؛ لكونِ كتابِهِ أكملَ مِنْ كلِّ الكتبِ[1].

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيّ:

الإيجازُ والإطنابُ ملحوظٌ في اختلافِ السّياق والمقام

تشابهَتْ هذهِ الآيةُ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾، مع قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران: 184]، فقد جُعِلَتِ التَّسليةُ في آية فاطر بحالِ الأُممِ معَ رُسُلِهم؛ لأنَّ سياقَ الحديثِ في شأنِ الأممِ، وجُعِلَتْ في آيةِ آلِ عمرانَ بحالِ الرُّسُلِ معَ الأممِ؛ لأنَّ سياقَ آيةِ آلِ عمرانَ كانَ في ردِّ محاولةِ أهلِ الكتابِ إفحامَ الرَّسولِ ﷺ؛ لأنَّ قبلَها: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ [آل عمران: 183].

وكُرِّرَتِ الباءُ هنا دونَ آيةِ آلِ عمرانَ؛ لأنَّ آيةَ آلِ عمرانَ جَرَتْ في سياقِ زعمِ اليهودِ أنَّهُ لا تُقبَلُ معجزةُ رسولٍ إلّا معجزةَ قُرْبانٍ تأكلُهُ النّارُ، فقيلَ في التَّفرُّدِ ببُهْتانِهم: قد كُذِّبَتِ الرُّسُلُ الَّذينَ جاءَ الواحدُ منهُم بأصنافِ المعجزاتِ، كعيسى عليه السلام، ومِنْ معجزاتِهم قرابينُ تأكلُها النّارُ، فتُرِكَتْ إعادةُ الباءِ هناكَ إشارةً إلى أنَّ الرُّسُلَ جاؤوا بالأنواعِ الثَّلاثةِ[2]، ولأنَّ ما في آيةِ آلِ عمرانَ كلامٌ مبنيٌّ على الاختصارِ، وهو إقامةُ لفظِ الماضي في الشَّرطِ مقامَ لفظِ المستقبلِ، ولفظُ الماضي أخفُّ، وبُنيَ الفعلُ للمفعولِ، فلا يحتاجُ إلى ذكرِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 234.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 298.

الفاعلِ، ولذلكَ لم تُكرَّرِ الباءُ؛ ليوافقَ الأوَّلَ في الاختصارِ، بخلافِ ما في هذهِ الآيةِ؛ فإنَّ الشَّرطَ فيها بلفظِ المستقبلِ، والفاعلُ مذكورٌ معَ الفعلِ، ولذلكَ كُرِّرَتِ الباءُ؛ ليكونَ الكلامُ كلُّهُ على نَسَقٍ واحدٍ[1].

نوعُ ﴿ثُمَّ﴾ ودلالتُها:

تحتمل (ثم) التّراخي الزّماني والرُّتبي

﴿ثُمَّ﴾ في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ عاطفةٌ هذهِ الجملةَ على جملةِ ﴿جَآءَتْهُمْ﴾، أي: ثمَّ أخذتُهم[2]، والتَّراخي فيها يحتمل أن يكون للتَّراخي الزَّمانيِّ[3]، وفي التَّعبيرِ بها إشارةٌ إلى أنَّ طولَ الإمهالِ ينبغي أنْ يكونَ سببًا للإنابةِ والرُّجوعِ إلى الحقّ، لا للاغترارِ بظَنِّ الإهمالِ[4]، ويحتمل أن يكون للتّراخي الرُّتبي، فمجيءُ الرُّسُل ابتداءً، ثمّ بعد ذلك أَخْذُ الأقوامِ، فلا تتقدّم رتبةٌ على أخرى، ففيه تنبيهٌ على العدالةِ الإلَهيّة.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ الأخذ:

نهايةُ الإمهالِ العذابُ والنَّكالُ

عُبِّرَ بالأخذِ في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ لِما فيهِ مِنَ الاستعارةِ اللَّطيفةِ، وذلكَ بتشبيهِ إهلاكِهم بإتلافِ المُغيرينَ على عدوِّهم، يقتلونَهم، ويغنمونَ أموالَهم، فتبقَى ديارُهم خاليةً، كأنَّهم أُخِذوا منها[5]، وهي استعارةٌ تمثيليَّةٌ، أو يقالُ: حقيقةُ الأخذِ: التَّناولُ لِما لم يكنْ في اليدِ، وقد استُعيرَ هنا للقدرةِ عليهِم، بتسليطِ الإهلاكِ بعدَ إمهالِهم، ومناسبةُ هذهِ الاستعارةِ: أنَّ الإملاءَ لهُم يُشبهُ بُعْدَ الشَّيءِ عن مُتناوِلِهِ، فشُبِّهَ انتهاءُ ذلكَ الإملاءِ بالتَّناولِ[6].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

العاقلُ يعتبرُ بالأمثالِ، وبما يسمعه من متين الأقوال

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 94.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 299.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 53.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 43.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 299.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 283.

﴿كَفَرُواْ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ إهلاكَ المُكذِّبينَ للرُّسُلِ أمرٌ قد تحقَّقَ ومضَى، وعُرِفَ واشتُهِرَ، وفي ذلكَ مناسبةٌ لمقامِ تهديدِ كفّارِ مكَّةَ بعاقبةٍ كعاقبةِ الَّذينَ مِنْ قبلِهم، لا سيَّما وهم يُعاينونَ آثارَ بعضِ هؤلاءِ المُعذَّبينَ، ويَمُرّونَ عليهِم.

نُكْتَةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

التّحذيرُ من الكفرِ، فهو علّةُ الإهلاكِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (أخذتُهم)، لكنْ وُضِعَ الموصولُ موضعَ ضميرِهم في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لذمِّهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ - وهو الكفرُ - والإشعارِ بعلّيَّتِهِ للأخذِ[1]، أي: ثمَّ أخذتُهم؛ لأنَّهم كفروا، وفي ذلكَ تحذيرٌ ووعيدٌ لكلِّ مَنْ يسلكُ سبيلَهم.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفظِ الكفرِ:

جنايةُ الكفّارِ بسترِ الآياتِ المنيرةِ بعدَ صبرِ الرُّسُلِ عليهِم، ودعائِهم لهُم

عُبِّرَ بلفظِ الكفرِ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لأنَّ الكفرَ في الأصلِ هو السَّترُ، وفي التَّعبيرِ بهِ هنا إشارةٌ إلى أنَّ الكفرةَ قد سَتَروا تلكَ الآياتِ المنيرةَ بعدَ طولِ صبرِ الرُّسُلِ عليهِم، ودعائِهم لهُم[2].

نُكْتَةُ صيغةِ الماضي:

عنادُ الكفرةِ على الكفرِ علّةُ إهلاكِهم

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ كفرَ المُكذِّبينَ للرُّسُلِ أمرٌ قد ثبتَ اتِّصافُهم بهِ، ورسخَ فيهِم، حتَّى صارَ بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهم الجِبِلِّيَّةِ، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لمقامِ التَّنصيصِ، على أنَّ الكفرَ سببُ أخذِهم؛ إذ تدلُّ صيغةُ الماضي على أنَّ اللّهَ أخذَهم بعدَ أنْ أمهلَهم، وتمكَّنَ الكفرُ منهُم.

غرضُ العطفِ بالفاءِ:

الإشعارُ بأنَّ أخذَ المُكذِّبينَ الكافرينَ مشهورٌ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ للتَّفريعِ على

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 150، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 397.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 43.

﴿أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[1]، وفي العطفِ بها إشعارٌ بأنَّ أخذَ المُكذِّبينَ مشهورٌ، وقد كانَ على وجوهٍ مِنَ العذابِ، ولذلكَ استوجبَ الاستفهامَ عندَ ذكرِهِ[2].

بلاغةُ الاستفهامِ وغرضُه:

أخـذُ المُكـذِّبـينَ عـجـيـبٌ، وهـو مـعـلـومٌ لـدى المخاطَبين

الاستفهامُ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ مِنْ حالِهم، وهو مُفرَّعٌ على أخذِهم، والمعنى: أخذتُهم أخذًا عجيبًا، كيفَ ترونَ أُعجوبتَهُ؟ وأصلُ (كيفَ) أنْ يُستفهَمَ بها عن الحالِ، فلمّا استُعمِلَ في التَّعجيبِ مِنْ حالِ أخذِهم؛ لزمَ أنْ يكونَ هذا الحالُ معروفًا، أي: يعرفُهُ النَّبيُّ ﷺ وكلُّ مَنْ بلغَتْهُ أخبارُهم، وعلى تلكَ المعرفةِ المشهورةِ بُنِيَ التَّعجيبُ[3]، وهو يزيدُ التَّشديدَ والتَّهويلَ[4].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ النَّكيرِ دونَ العقابِ:

لو رأى الجاهلُ العـذابَ لأنكرَه من شـدَّة هوله وعظيم وقعِه

عُبِّرَ بلفظِ النَّكيرِ دونَ العقابِ في قوله ﷻ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؛ لأنَّ فيهِ كنايةً بديعةً؛ لأنَّهُ في الأصلِ اسمٌ لشدَّةِ الإنكارِ، وهو هنا كنايةٌ عن شدَّةِ العقابِ؛ لأنَّ الإنكارَ يستلزمُ الجزاءَ على الفعلِ المُنكَرِ بالعقابِ[5]، فجمعَ هذا اللّفظُ بين معنى العذابِ، ولفظِ النّكير ومعناه، فدلَّ على أنَّ عذابَهم بسببِ أفعالهم المنكرةِ، فكان الجزاءُ من جنسِ العمل، ولو رآه الجاهلُ لأنكره لشدّة هولِه، وعظيمِ شدّته، وفي التَّعبيرِ بهِ أيضًا مراعاةٌ للفاصلةِ.

لطيفةُ حذفِ ياءِ المتكلِّمِ:

حُذِفَتْ ياءُ المتكلِّمِ في لفظِ ﴿نَكِيرِ﴾ تخفيفًا، ولرعايةِ الفواصلِ في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 299.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 43.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 299.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 150.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 300.

الوقفِ؛ لأنَّ الفواصلَ يُعتبَرُ فيها الوقفُ[1]، وللإيماءِ إلى أنَّ هذا النكير مضافٌ إلى الضّمير دون التّصريح به، لما فيه من شدّة التّعذيب.

بلاغةُ التَّعريضِ:

في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ تعريضٌ بالوعيدِ، وتهديدٌ لقريشٍ بمِثْلِ ما جرَى لمُكذِّبي الرُّسُلِ في الأممِ السّابقةِ[2]؛ فإنَّ اللّهَ تعالى قد كتبَ على نفسِهِ نُصْرةَ رُسُلِهِ، وذِكْرُ هذا الاستفهامِ لتحريك الأفهام، وتصويبِ المطلوب من الأنام، بإدراكِ أنَّ اللّه تعالى ليس غافلًا عمّا يعملون، وأنَّ إنزالَ العذابِ كما نزل بالمتقدّمين قابَ قوسين أو أدنى، فغرضُ الخبر التّحذيرُ بالتّعريض، ورُبَّ خبرٍ يُعرَّض به أشَدُّ من تهديدٍ صريح.

قَـــزْعُ العـصا لـكـفّـارِ قـريـشٍ أشـدُّ مـن إنـزالِ سَـوطِ الـعـذابِ لمَن عَقِل وفهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 300.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 28.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والأربعون،
سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والأربعون، سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 47 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-731-00-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 47 : المجلد السابع والأربعون، سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-731-00-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0968178 بتاريخ 2025/01/23م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»